مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

العاديات ضبحا أم الغاديات صبحا

قراءة بديلة لسورة العاديات

منذر يونس
باحث أردني

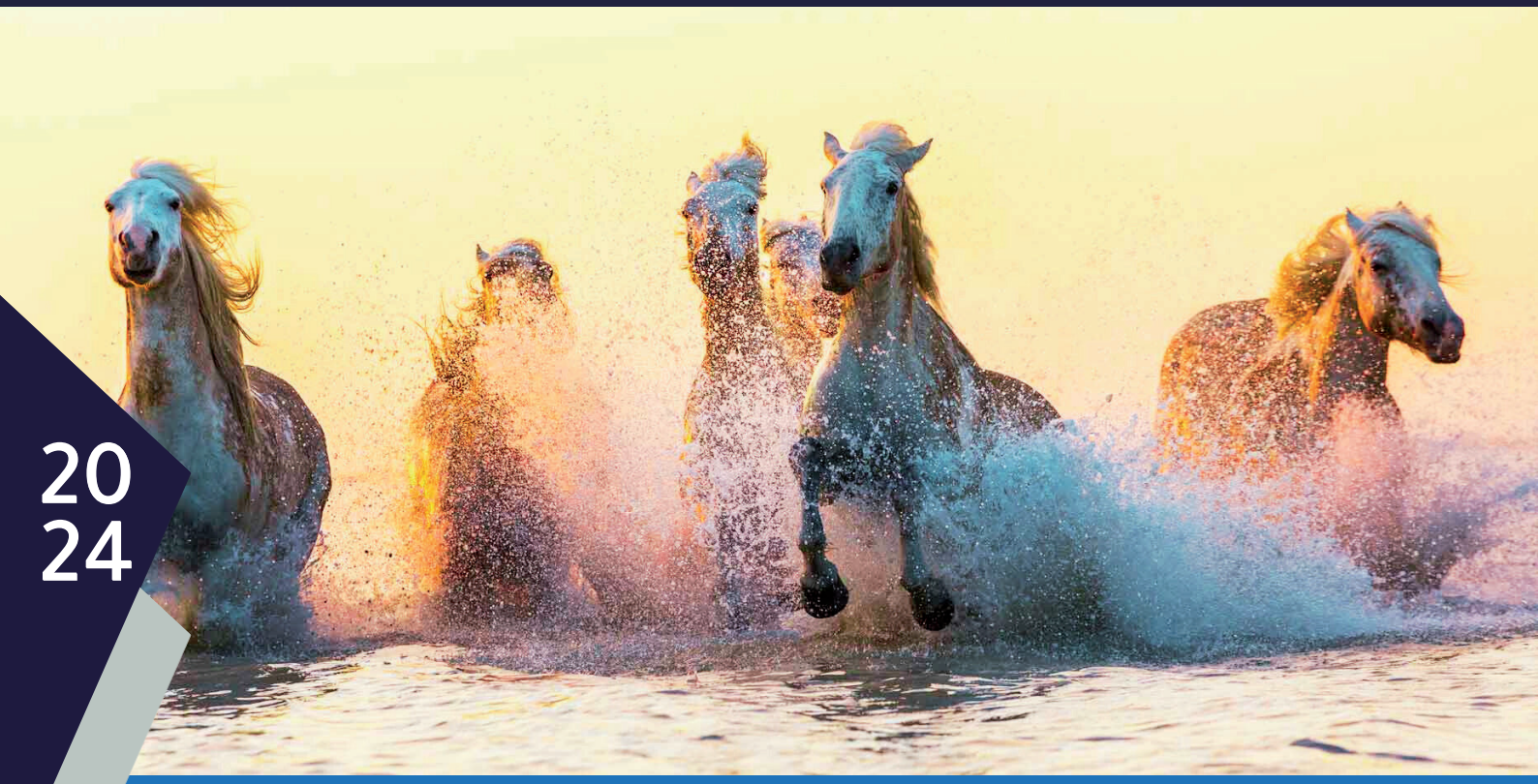

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 26 غشت 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

العاديات ضبحا أم الغاديات صبحا

قراءة بديلة لسورة العاديات

مقدّمة

شكّلت عبارات «القَسَم» في فواتح سور الصافّات والذاريات والمرسلات والنازعات والعاديات تحدّياً كبيراً لمفسّري القرآن الذين يبدو أنّهم كانوا يجهلون إلى مَنْ يشير اسم الفاعل الذي تُفْتَتَحُ به كلّ من هذه السور. وقد اجتهدوا وخمّنوا أنّ أسماء الفاعل تلك تشير إلى مجموعة متنوّعة من العناصر والظواهر الطبيعية كالملائكة والرُسل والنجوم والريح والموت والأقواس والروح والسفن والخيل والإبل.

رأى بعض الباحثين في الغموض وصعوبة فهم هذه الآيات دليلاً على إعجاز لغة القرآن؛ فمثلا كتبت الباحثة Soraya M. Hajjaji-Jarrah «ثريا حجاجي جراح» في هذا الصدد، ما يلي:

تقدّم سورة العاديات مثالاً رائعاً للكيفيّة التي صاغت بها عربية القرآن مجموعة مُبْهِرة من الكلمات التي تجمع بين الصوت والمعنى، مّتحدّية في ذات الوقت تقاليد السجع العربي والقواعد الأدبية للأدب العربي الكلاسيكي. إنّها تمثّل البناء المقنِع والمسيطر على الأحاسيس مع الإيقاع السائد، والرسالة المهمّة لعربية القرآن التي انتقت هذه الموادّ وعبّرت عنها بهذه الطريقة وبهذه الطريقة فقط»[1].

أمّا أستاذة اللغة العربيّة والأدب العربي الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة بـــ «بنت الشاطئ»، والتي مرّ ذكرها سابقاً، فقد كتبت عن سورة العاديات:

في كلّ كلمة، بل وفي كلّ حرف منها (أي من سورة العاديات)، سِرُّهُ البياني الباهر فيما قصد إليه القرآن من إحضار مَشْهدٍ ليَوْم البَعث شاخصاً مجسّماً، وتأكيد وقوعه، والإنذار بما ينتظر الإنسان فيه من حساب دقيق عسير[2].

سأبدأ هنا بتقديم آيات السورة وتفسيرها كما ورد في الطبري:[3]

الآية الأولى: والعادِياتِ ضَبحا

يستهلّ الطبري تفسيره للآية بقوله: «اختلف أهل التأويل في تأويل الآية»، ويورد التأويلات التالية:

الخيل التي تعدو وهي تحمحم، قال ابن عبّاس الإبل، في القتال، ليس شيء من الدوابّ يضبح غير الكلب والفرس، الخيل عَدَتْ حَتى ضَبَحَتْ، الإبل إذا ضبحت تنفّست.

---

1 Soraya M. Hajjaji-Jarrah, "The Enchantment of Reading: Sound, Meaning, and Expression in *Sūrat al-ʿĀdiyāt*", in *Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'ān*, ed. Issa Boullata (Richmond, Surrey: Curzon, 2000), 228–251, at 229

2 بنت الشاطئ، التفسير البياني، ج. 1، ص. 103

3 تفسير الطبري، ج. 12، ص. 665-674

في حديث عن ابن عباس قال: بينما أنا في الحِجْر جالس أتاني رجل يسأل عن الْعادِياتِ ضَبْحا، فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عنّي، فذهب إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو تحت سقاية زمزم، فسأله عن الْعادِياتِ ضَبْحا، فقال: سألتَ عنها أحدا قبلي؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس، فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تُفتي الناس بما لا عِلم لك به، والله لكانت أوّل غزوة في الإسلام لِبدر، وما كان معنا إلا فرسان: فَرَس للزّبَير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العادياتِ ضبحا، إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى مزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال عليّ رضي الله عنه.

وفي حديث منسوب إلى مُجاهد، في قول الله: وَالْعَادِياتِ ضَبْحا قال: قال ابن مسعود: «هو في الحج».

رأي الطبري: عني بالعاديات الخيل؛ وذلك أن الإبل لا تضْبَح، ولكن الخيل تضبح، وقد أخبر الله تعالى أنها تعدو ضَبْحا.

الآية الثانية: فالْموريات قَدْحا

يقول الطبري: اختلف أهل التأويل هنا أيضاً، وممّا رواه:

هي الخيل توري النار بحوافرها، الخيل هِجن الحرب بينهم وبين عدوّهم، الذين يُورون النار بعد انصرافهم من الحرب، الخيل تغير في سبيل الله، ثم تأوِي إلى الليل، فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، المكر، مكر الرجال، الألسنة، الإبل حين تسير تَنْسِفَ بمناسمها الحصى. إذا نسفت الحصى بمناسمها، فضربَ الحصَى بعضُه بعضا، فتخرج منه النار.

رأي الطبري: أقسم [الله] بالموريات التي توري النيران قدحا فالخيل تُوري بحوافرها، والناس يورونها بالزند، واللسان يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها.

الآية الثالثة: فالْمُغيراتِ صُبْحا

اختلف أهل التأويل، وممّا يذكره الطبري:

[تُغير] على عدوّها علانية، الخيل تغير في سبيل الله، أغارت على العدوّ صبحا أو حين أصبحت، أغار القومُ بعدما أصبحوا على عدوّهم، أغار القوم حين أصبحوا، الإبل حين تدفع بركبانها من «جَمْعٍ» يوم النحر إلى «مِنَى».

رأي الطبري: أقسم بالـمُغيرات صبحا، ولم يُخصّص من ذلك مغيرة دون مغيرة، فكلّ مغيرة صُبحا، داخلة فيما أقسم به. ويضيف: «وقد كان زيد بن أسلم يذكر تفسير هذه الأحرف ويأباها، ويقول: إنما هو قسم أقسم

الله به... قال ابن زيد، في قوله: وَالْعادِياتِ ضَبْحا فالـمُورِياتِ قَدْحا قال: هذا قسم أقسم الله به. وفي قوله: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعا قال: كلّ هذا قسم، قال: ولم يكن أبي ينظر فيه إذا سُئل عنه، ولا يذكره، يريد به القسم.

الآية الرابعة: فاثَرْنَ بِهِ نَقْعا

رفعن بالوادي غُبارا والنقْع: الغبار، ويقال: إنه التراب، والهاء في قوله «به» كناية اسم الموضع، وكنى عنه، ولم يجر له ذكر؛ لأنه معلوم أن الغبار لا يثار إلا من موضع، فاستغنى بفهم السامعين بمعناه من ذكره، أثارت (الخيل) الترابَ بحوافرها. عن ابن عباس قال: قال لي عليّ: إنما العاديات ضَبْحا من عرفةَ إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى مِنَى، فَأَثَرْنَ به نَقْعا: الأرض حين تطؤها بأخفافها وحوافرها.

الآية الخامسة: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعا

يورد الطبري التفاسير التالية للآية ولا يرجّح قولاً على قول:

فوسَطْن بركبانهنّ جمع القوم، وسطت القوم بالتخفيف، ووسّطته بالتشديد، وتوسّطته بمعنى واحد، جمع الكفار، جمع القوم، جمع العدوّ، جمع هؤلاء وهؤلاء، الجمع: الكتيبة، مزدلفة.

الآية السادسة: إِنَّ الإِنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنود

يورد الطبري التفاسير التالية للآية، ولا يرجّح قولاً على قول:

إن الإنسان لكفور لنِعم ربه، الأرض الكنود: التي لا تُنبت شيئا، سُمّيت (قبيلة) كندة: لقطعها أباها، هو الكفور الذي يَعُدّ المصائب، وينسى نِعَم ربه، لوّام لربه يعدّ المصائب، كَفُور، يأْكُلُ وَحْدَهُ، ويَضْرِبُ عَبْدَهُ ويَمْنَعُ رِفْدَهُ.

الآية السابعة: وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهيد

إن الله على كنوده رَبّه لشهيد: يعني لشاهد. في بعض القراءات «إنّ اللهَ عَلى ذلكَ لَشَهِيدٌ».

الآية الثامنة: وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَديد

اختلف أهل العربيّة، وهذه الآراء التي يوردها الطبري:

وإن الإنسان لحبّ المال لشديد، وإنه من أجل حبّ الخير لشديد، وللبخيل شديد ومتشدّد، وإنه لحبّ الخير لقويّ، الخير: الدنيا، المال.

الآية التاسعة: أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما في الْقُبور

أفلا يعلم هذا الإنسان الذي هذه صفته إذا أُثير ما في القبر، وأُخرج ما فيها من الموتى وبُحث. للعرب في بُعْثِرَ لغتان: بُعثِر وبُحثر، ومعناهما واحد.

الآية العاشرة: وَحُصِّلَ ما في الصُدور

مُيّز وبُيّن فأبرز ما في صدور الناس من خير وشرّ.

الآية الحادية عشرة: إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبير

إن ربهم بأعمالهم وما أسرّوا في صدورهم وأضمروه فيها، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذٍ.

مشاكل سورة «العاديات»

قد يتساءل المرء: أليس من الغريب أنّ سورة تتكوّن من إحدى عشرة آية قصيرة، بما مجموعه ثلاث وثلاثون كلمة مختلفة، تتطلّب هذا الكمّ الهائل من التأويلات عبّر عنها الطبري بما يزيد على ثلاثة آلاف كلمة دون التوصّل إلى إجابات معقولة لعدد من الأسئلة الأساسيّة:

1. إلى ماذا تشير كلمة «العاديات»؟

2. ماذا تعني الكلمات «ضبحا»، «نقعا»، و«كنود»؟

3. على مَنْ يعود الضمير في الآيتين الرابعة والخامسة من السورة: «فأثرن به نقعا» و«فوسطن به جمعا»؟

4. لماذا فُهمت كلمة «الخير» بمعنى يختلف عن معناها الأصلي؟ ذُكرت هذه الكلمة في القرآن أكثر من مائة وثمانين مرّة، كلّها بمعنى «الخير» كما نفهمه بالعربيّة؛ أي الشيء الحسن والعمل الصالح وما إلى ذلك، إلّا في هذه السورة، حيث ارتبطت بحبّ المال والبُخل، مع ما يقود إليه ذلك الفَهم من سلبيّة ونفور.

5. يُفْتَرض أنّ السورة تصف مشهد معركة، فلماذا لا يوجد شيء فيها يمكن ربطه وبشكل واضح بالمعركة والقتال؟ فكلمة «العاديات» بحدّ ذاتها لا تعني الخيل أو أي شيء مرتبط بالحرب، وإنّما تعني «أشياء تعدو» أي «تركض» أو «تتحرّك بسرعة». هناك كلمة «المغيرات» التي تعني «اللاتي يقُمْنَ بالغارات»، والتي يمكن ربطها بمشهد معركة، ولكن سأبيّن لاحقاً في هذا الفصل أنّ هناك ما يُشير إلى أنّ هذه الكلمة لم تكن جزءاً من النصّ الأصلي للسورة.

6. أخيراً، تُصنّف سورة العاديات على أنّها «مكّيّة»؛ أي إنّها نزلت في الفترة الأولى من دعوة النبي محمّد، قبل الهجرة إلى المدينة وبناء جيش مسلم. من حقّنا أن نتساءل: هل من المعقول أنّ النبيّ وأتباعه، الذين كانوا قليلي العدد وضعيفي أو مَعدومي العُدّة، والذين كان هدفهم الأوّل النُجوّ من أعدائهم الأقوياء في مكّة الذين كانوا يهدّدون بالقضاء عليهم، أن يقوموا بغارات وغزوات في مثل الظروف التي كانت تحيط بهم؟

كتب مترجم القرآن Mohammed Marmaduke Pickthall «محمد مرمادوك بيكثال» تعليقاً على ترجمته لسورة العاديات يعكس الصعوبة التي واجهها المفسّرون في فهم الآيات الخمس الأولى منها، حيث يقول في هامش ترجمته: «إنّ معنى الآيات الخمس الأولى ليس واضحا أبداً، وما ورد أعلاه [من ترجمة] ما هو إلا تقريب لما هو ممكن»[4]. وفي نفس السياق، كتب A. J. Droge «ايه جي دروجه» في هامش ترجمته للقرآن: «تحتوي الآيات الخمس الأولى على أفعال وأسماء فاعل في صيغة جمع المؤنّث، يُقال عادة إنّها تشير إلى «خيول حرب»، لكنّها تبدو في غاية الغموض، حيث إنّه ليس أمامنا إلا تخمين معانيها»[5].

سأناقش مشاكل السورة بالتفصيل، وسأقوم بتقسيم هذه المشاكل إلى نوعين رئيسيْن: معجميّ/دلالي وآخر نحوي. وأقصد بالمعجمي/الدلالي: الكلمات ومعانيها.

المشاكل المعجمية /الدلالية

العاديات

فُسِّرت كلمة «العاديات» بمعنى «خيل» أو «إبل»؛ لأنّها مشتقّة من الفعل (عدا-يعدو) المبني على الجذر ع-د-و. يوجد في القرآن خمس عشرة صيغة مشتقّة من ذلك الجذر مستعملة مائة وخمس مرّات[6]. وهذه الصيغ هي:

عدا/يعدو: التجاوز والتخلّي والابتعاد، عادى/يعادي: العداء والمعاداة، تعدّى/يتعدّى: التجاوز وخصوصاً تجاوز الحدود، اعتدى/يعتدي: الانتهاك والعدوان وعدم احترام القوانين، عَدْو: العُدوان، عادي (ج. عادون)، عادية (ج. عاديات): مرتكِب العدوان، مُهاجِم، مُغير، مُعْتَدي: مَن يعتدي على غيره، غير مطيع للقوانين، عدُوّ: مَن يُعادي الآخرين، من هو في حالة عداء مع غيره، عداوة: حالة العداء والخصومة، عُدوان: الاعتداء على الآخرين، اللوم، عُدوة: جانب الوادي.

---

4 Mohammed Marmaduke Pickthall, *The Meaning of the Glorious Qur'ān* (Beirut: Dar Al-Kitāb Al-Lubnanī, 1970), 817

5 A. J. Droge, *The Qur'ān*: *A New Annotated Translation* (Sheffield-Bristol: Equinox, 2013), 445

6 Badawi and Abdel-Haleem, *Dictionary*, 606-607

من الواضح أنّ مشتقّات الجذر [ع-د-و] تدور كلّها حول معاني «التجاوُز» و«العدوان» أو «الانتهاك»، أو «معاملة الآخرين كأعداء». ومن الواضح أيضاً أنّ تفسير كلمة «العاديات» في هذه السورة على أنّها «مَن يُهاجمن» أو «يُغِرن» هي نتيجة وجودها في هذا السياق الذي يُفترض أنّه غارة أو ساحة معركة؛ إذ لا شيء في الكلمة نفسها أو في أيّ كلمة أخرى في القرآن مشتقّة من الجذر ع-د-و، يشير إلى «العدْو» (أي الجري)، أو «الخيل» أو «الإبل». وإذا ما راعينا قواعد الصرف العربي وأخذنا بعين الاعتبار الكلمات المشتقّة من الجذر ع-د-و، وخاصّة اسم الفاعل «عادي/عادية»، فإنّ كلمة «عادية» (جمع عاديات) يجب أن تعني «تلك التي ترتكب العدوان» أو «تجتاز الحدود».

ضبحا

لقد أثار الاستعمال الغريب لهذه الكلمة في سورة العاديات قدراً كبيراً من الجدل بين مفسّري القرآن، كما يتّضح ممّا كتبه القرطبي (ت. 671هـ/1272) في تفسير آية «والعاديات ضبحا»، والذي يقع في أكثر من ستمائة كلمة:[7]

قوله تعالى: «والعاديات ضبحا» أي الأفراس تعدو. كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح. قال قتادة: تضبح إذا عدت؛ أي تحمحم. وقال الفراء: الضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدون. ابن عباس: ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب. وقيل: كانت تكعم لئلا تصهل، فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة. قال ابن العربي: أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال: «يس. والقرآن الحكيم» [يس: 1]، وأقسم بحياته، فقال: «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» [الحجر: 72]، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها، وقدح حوافرها النار من الحجر، فقال: «والعاديات ضبحا»... الآيات الخمس. وقال أهل اللغة: وطعنة ذات رشاش واهيه طعنتها عند صدور العادية يعني الخيل. وقال آخر: والعاديات أسابي الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب يعني الخيل. وقال عنترة:

والخيل تعلم حين تضبـــ ـــبح في حياض الموت ضبحا

وقال آخر:

لســـت بالتبـــع اليـــماني إن لم تضبـــح في ســـواد العـــراق

وقال أهل اللغة: وأصل الضبح والضباح للثعالب، فاستعير للخيل، وهو من قول العرب: ضبحته النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه، وقال الشاعر:

7 القرطبي، محمّد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن (20 جزء)، القاهرة: دار الكتاب العربي، 1967، ج. 20، ص. 153-156

فلـــما أن تلهوجنـــا شـــواء بـــه اللهبـــان مقهـــورا ضبيحـــا

وانضبح لونه: إذا تغير إلى السواد قليلاً. وقال:

علقتها قبل انضباح لوني

وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع وتعب أو طمع. ونصب «ضبحا» على المصدر؛ أي والعاديات تضبح ضبحا. والضبح أيضاً الرماد. وقال البصريون: «ضبحا» نصب على الحال، وقيل: مصدر في موضع الحال. قال أبو عبيدة: ضبحت الخيل ضبحا مثل ضبعت، وهو السير. وقال أبو عبيدة: الضبح والضبع: بمعنى العدو والسير. وكذا قال المبرد: الضبح مد أضباعها في السير. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى أناس من بني كنانة، فأبطأ عليه خبرها، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النقباء؛ فقال المنافقون: إنهم قتلوا؛ فنزلت هذه السورة إخبارا للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم. وممن قال: إن المراد بالعاديات الخيل، ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد. والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون. وفي الخبر: من لم يعرف حرمة فرس الغازي، فيه شعبة من النفاق. وقول ثان: إنها الإبل، قال مسلم: نازعت فيها عكرمة، فقال: قال ابن عباس هي الخيل، وقلت: قال علي هي الإبل في الحج، ومولاي أعلم من مولاك. وقال الشعبي: تمارى علي وابن عباس في «العاديات»، فقال علي: هي الإبل تعدو في الحج. وقال ابن عباس: هي الخيل، ألا تراه يقول «فأثرن به نقعا» [العاديات: 4] فهل تثير إلا بحوافرها! وهل تضبح الإبل! فقال علي: ليس كما قلت، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد، وفرس لمرثد بن أبي مرثد، ثم قال له علي: أتفتي الناس بما لا تعلم! والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان: فرس للمقداد، وفرس للزبير؛ فكيف تكون العاديات ضبحا! إنما العاديات الإبل من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى عرفة. قال ابن عباس: فرجعت إلى قول علي، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي. ومنه قول صفية بنت عبد المطلب:

فـــلا والعاديـــات غـــداه جمـــع بأيديهـــا إذا ســـطع الغبـــار

يعني الإبل. وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي. وقال آخر:

رأى صاحبـــي في العاديـــات نجيبـــة وأمثالهـــا في الواضعـــات القوامـــس

ومَن قال هي الإبل، فقوله «ضبحا» بمعنى ضبعا؛ فالحاء عنده مبدلة من العين؛ لأنه يقال: ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير. وقال المبرد: الضبع مد أضباعها في السير. والضبح أكثرها ما يستعمل في الخيل. والضبع في الإبل. وقد تبدل الحاء من العين. أبو صالح: الضبح من الخيل: الحمحمة، ومن الإبل التنفس. وقال عطاء: ليس شيء من الدواب يضبح إلا الفرس والثعلب والكلب؛ وروي عن ابن عباس. وقد تقدم عن أهل اللغة أن العرب تقول: ضبح الثعلب؛ وضبح في غير ذلك أيضاً. قال توبة:

ولـــو أن ليـــلى الأخيلية ســـلمت عـــلي ودوني تربـــة وصفائـــح
لســـلمت تســـليم البشاشـــة أو زقا إليها صـــدى من جانب القبر ضابح

زقا الصدى يزقو زقاء: أي صاح. وكل زاق صائح. والزقية: الصيحة.

إن دلّت التعريفات المختلفة والآراء المتناقضة لتوضيح معنى «ضبحا» على شيء، فإنّما تدلّ على محاولة يائسة لربط الفعل «ضبح»، والمعروف باللغة على أنّه يشير إلى صوت الثعلب أو ابن آوى، بالخيول التي تعدو أو تجري. وتصل هذه المحاولة إلى مستويات مُستغرَبة عند استعمال المعنى الآخر للفعل «ضبح» في تغيّر لون الأشياء نتيجة الحرق، لإضفاء تفسير بديل لكلمة «ضبحا» بمقارنة ما يحدث من تغيّر اللون عند الحرق وتغيّر حالة الخيل نتيجة «الفزع والتعب والطمع».

ولا يقلّ شرح الراغب الإصفهاني (ت. 501هـ/1108م) لمعنى كلمة «ضبحا» غرابة عن شرح القرطبي للكلمة، حيث يقول:[8]

ضبح: (والعاديات ضبحا) قيل الضبح صوت أنفاس الفرس تشبيهاً بالضُباح، وهو صوت الثعلب، وقيل هو حفيف العَدو وقد يقال ذلك للعَدو. وقيل الضبح كالضبع، وهو مَدّ الضبع في العدو، وقيل أصله إحراق العود وشبّه عدوه به كتشبيهه بالنار في كثرة حركتها.

قدحا

يفسّر أكثر المفسّرين هذه الكلمة «بالشرر الناتج عن عدو الخيل»، ولكن ليس من الممكن قبول هذا التفسير إذا أخذنا بعين الاعتبار الرأي القائل إنّ كلمة «العاديات» تشير إلى الإبل، فليس هناك مَن يمكنه القول إنّ الشرر ينتج عن حوافر الإبل.

نقعا

يبدو أنّ كلمة «نقعا» لا تُستعمل بمعنى «التراب» خارج سورة العاديات[9]. وفي الوقت الذي يبدو فيه أنّ هناك اتّفاقا عامّا بين مفسّري القرآن على أنّ «نقعا» تعني «الغبار»، فإنّ الرازي (ت. 606هـ/1209م) أحسّ بهذا الاستعمال الغريب للكلمة وحاول ربط كلمة «الغبار» بمعاني الجذر ن-ق-ع مثل: «رفع الصوت» أو النقع في الماء»، فقال:

8 الراغب الإصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمّد سيّد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، ص. 292

9 ابن منظور، لسان العرب، ص. 4525-4528

في النقع قولان: أحدهما: أنّه الغُبارُ، وَقيلَ: إِنَّهُ مأخوذ من نَقع الصوت إذا ارتَفَعَ، فالغُبارُ يُسَمَّى نَقعًا لِارتفاعه، وَقيلَ: هو مِنَ النقع في الماء، فَكأنَّ صاحبَ الغُبار غاصَ فيه، كَما يَغوصُ الرجُلُ في الماء والثاني، النقع الصياح من قَوله عَلَيه الصلاةُ والسلامُ: «ما لَم يَكُن نَقعٌ وَلا لَقلَقَةٌ»؛ أَي فَهَيَّجنَ في الـمُغار عَلَيهم صياحَ النوائح، وارتَفَعَت أَصواتُهُنَّ، وَيُقال: ثارَ الغُبار والدخان؛ أَي ارتَفَعَ وَثارَ القَطا عَن مفحَصه، وأَثَرنَ الغُبار أَي هَيَّجنَهُ، والـمَعنى أَنَّ الخَيلَ أَثَرنَ الغُبارَ لِشدَّة العَدوِ في الـمَوضِعِ الَّذي أَغَرنَ فيه[10].

نرى فيما كتبه الرازي محاولة أخرى لإعطاء معنى لكلمة «ضبحا» ليس لها أصلاً، حتى تتناسب مع السياق والمعنى الذي تصوّره للآية.

كنود

لقد شرح المفسّرون الأوائل هذه الكلمة على أنّها كفور[11]. ويضيف مقاتل إنّ الآية التي تقع فيها الكلمة (العاديات: 6) «نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي، وهو الرجل الذي أكل وحده، وأشبع بطنه، وأجاع عبده، ومتع رفده، ولم يعط قومه شيئاً، يسمّى بلسان بني مالك بن كنانة الكنود. أمّا الضحّاك، فيقول إنّها نزلت في الوليد بن المغيرة. ويضيف أبو عبيدة لتفسيره لكلمة كنود «وكذلك الأرض الكنود التي لا تُنبت شيئاً»[12]. ومع مُرور الزمن، أصبحت التفسيرات أكثر طولاً وتفصيلاً، وأُضيفت لها عناصر جديدة. انظر على سبيل المثال إلى تفسير القرطبي (ت. 671هـ/1273م):

قوله تعالى: إن الإنسان لربه لكنود

هذا جواب القسم: أي طُبع الإنسان على كفران النعمة. قال ابن عباس: لكنود لكفور جحود لنعم الله. وكذلك قال الحسن، وقال: يذكر المصائب وينسى النعم، أخذه الشاعر فنظمه:

يـا أيهـا الظـالم في فعلـه ... والظلم مردود عـلى من ظلم
إلى متـى أنـت وحتـى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم!

وروى أبو أمامة الباهلي قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «الكنود، هو الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده». وروى ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «ألا أنبئكم بشراركم»؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: «من نزل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده». خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر

10 الرازي، فخرالدين محمّد بن عمر: التفسير الكبير (32 جزء)، طهران: شركة صحافي نَوين، 1980، ج. 32، ص. 66

11 تفسير مقاتل، ج. 3، ص. 511، تفسير عبد الرزاق، ج. 3، ص. 452، الضحّاك بن مزاحم: تفسير الضحّاك، تحقيق محمّد شكري أحمد الزاويتي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 1999، ج. 2، ص. 983، تفسير مجاهد، ص ص. 349-350

12 أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج. 2، ص. 307

الأصول. وقد روي عن ابن عباس أيضا أنه قال: الكنود بلسان كندة وحضرموت: العاصي، وبلسان ربيعة ومضر: الكفور. وبلسان كنانة: البخيل السيئ الملكة؛ وقاله مقاتل: وقال الشاعر:

كنـــود لنعـــماء الرجال ومـــن يكن كنـــودا لنعـــماء الرجـــال يبعـــد

أي كفور، ثم قيل: هو الذي يكفر باليسير، ولا يشكر الكثير. وقيل: الجاحد للحق، وقيل: إنما سميت كندة كندة: لأنها جحدت أباها. وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر:

دع البخـــلاء إن شـــمخوا وصـــدوا وذكـــرى بخـــل غانيـــة كنـــود

وقيل: الكنود: من كند إذا قطع: كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر، ويقال: كند الحبل: إذا قطعه. قال الأعشى:

أميطـــي تميطـــي بصلـــب الفـــؤاد وصـــول حبـــال وكنادهـــا

فهذا يدل على القطع. ويقال: كند يكند كنودا: أي كفر النعمة وجحدها، فهو كنود. وامرأة كنود أيضاً، وكنود مثله. قال الأعشى:

أحـــدث لها تحـــدث لوصلـــك إنها كنـــد لوصـــل الزائـــر المعتـــاد

أي كفور للمواصلة. وقال ابن عباس: الإنسان هنا الكافر: يقول إنه لكفور: ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً. وقال الضحاك: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال المبرد: الكنود: المانع لما عليه. وأنشد لكثير:

أحدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطي: الكنود: الذي ينفق نعم الله في معاصي الله. وقال أبو بكر الوراق: الكنود: الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه. وقال الترمذي: الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم. وقال ذو النون المصري: الهلوع والكنود: هو الذي إذا مسه الشر جزوع، وإذا مسه الخير منوع. وقيل: هو الحقود الحسود. وقيل: هو الجهول لقدره. وفي الحكمة: من جهل قدره: هتك ستره.

قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود. وقد فسر النبي -صلى الله عليه وسلم- معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال.

وقد حدا أصحاب المعاجم حذو مفسّري القرآن في شرحهم لكلمة» كنود». ففي باب الجذر ك-ن-د يورد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. 175هـ/791م) كلمة واحدة هي «كنود»، ويقول في شرح معناها: «الكفور للنعمة، وقوله عزّ وجلّ [إنّ الإنسان لربّه لكنود] يفسّر بأنّه يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رفده»[13].

أمّا ابن سِيدَه (ت.458هـ/1066م)، فيورد المشتقّات التالية للجذر ك-ن-د:

كَنَد-يكنُد-كَنُودا: كفر بالنعمة، رجل كنّاد وكنود، إنّ الإنسان لربّه لكنود: الجحود ... هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده، امرأة كُنُدٌ وكنود: كفور للمواصلة، أرض كنود: لا تنبت شيئا، كندة: اسم أبي قبيلة عربيّة، كنود وكنّاد وكُنادة: أسماء[14].

وباستثناء اسم العلم «كندة»، فإنّ المعاني المرتبطة بكلمة «كنود» التي جاء بها المفسّرون وأهل اللغة كلّها تدور حول معنى «الكفور، الجحود». يضيف ابن سيدة في تعريفه لكلمة «كنود»: «ولا أعرف له في اللغة أصلا، ولا يسوغ أيضا مع قوله: «لربّه»»[15].

تشير الدلائل إلى أنّه ليس لكلمة «كنود» وجود مستقلّ في العربيّة خارج الآية السادسة من سورة العاديات، ومن المحتمل جدّاً أنّه تمّ إقحامها إلى اللغة لأوّل مرّة من خلال هذه الآية. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ السياق الذي توجد فيه كلمة «كنود» يجعل من غير المحتمل ظهور كلمة ذات معنى شديد السلبية كالجُحود والكفر بالنعمة، كما سأوضّح في الفقرات التالية.

تفاسير إيجابية وأخرى سلبية: نظرة في كلمة «الخير»

من السِمات التي قد يلاحظها قارئ أو سامع سورة العاديات الانتقال المفاجئ من معنى شديد السلبيّة في الآية السادسة (إنّ الإنسان لربّه لكنود)، إلى المعنى الإيجابي في الآية الثامنة (وإنّه لحبّ الخير لشديد)، رغم محاولات المفسّرين ربط كلمة «الخير» بمعنى سلبي، وهو المال والجشع.

فقد وردت كلمة «خير» أو إحدى صيغها (أخيار، خيرات، خِيرة) مائة وثمان وثمانين مرّة في القرآن[16]، يدور معناها حول «صالح، عمل صالح، مُفضّل أو مُختار». وفي آية واحدة تأتي بمعنى الثروة أو الميراث (البقرة: 180 «كُتِبَ عَلَيكُم إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الـمَوتُ إِن تَرَكَ خَيراً الوَصيةُ لِلوالِدَينِ والأَقرَبينَ بِالـمَعروفِ حَقًّا عَلَى

13 الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق داود سلّوم، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2000، ص. 730

14 ابن سيدة، علي بن إسماعيل: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الفتّاح السيّد سليم وفيصل الحفيان (جزآن)، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، 2003، ج. 2، القسم السادس، ص. 471

15 ابن سيدة، المحكم، ج. 2، القسم السادس، ص. 471

16 عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص. 306-309

الـمُتَّقين»)، وكلّ هذه معانٍ إيجابيّة. ولكنّ الكلمة، مقترنة بكلمة «شديد»، تأخذ معنى في غاية السلبيّة، وهو «البخل وحبّ المال» في الآية الثامنة من سورة العاديات: «وإنّه لحبّ الخير لشديد»[17].

إنّ المعنى الذي أعطاه المفسّرون وأهل اللغة لعبارة «حبّ الخير لشديد» لا تبرّره معاني الكلمات التي تتكوّن منها كما هي مستعملة في العربية، بما فيها عربية القرآن. وإذا تمّ فهم العبارة بناء على معاني الكلمات التي تتكوّن منها وهي «حُبّ»، «خير»، و«شديد»، فإنّ المعنى الناتج هو أنّ الإنسان شديد الحبّ للخير أو أنّه يحبّ عمل الخير كثيراً.

إنّ مثل هذه القراءة الإيجابيّة لكلمة «خير» في «وإنّه لحبّ الخير لشديد» تدعم فكرة القراءة الإيجابية لكلمة «كنود» في الآية السادسة التي سأقترحها أدناه، وهي: «إنّ الإنسان لربّه (صفة حميدة)، وهو يحبّ فعل الخير كثيراً»، وهي قراءة أكثر سلاسة ومنطقيّة من تلك التي يُصوَّر فيها الإنسان على أنّه كفور وفي نفس الوقت يحبّ الخير أو الأعمال الصالحة.

خلاصة القول إنّه لا وجود لأيّ أساس في لغة القرآن لما ادّعاه المفسّرون من أنّ «العاديات» تشير إلى «الخيل» أو «الإبل»، وأنّ «ضبحا» تشير إلى صوت تحدثه تلك الحيوانات، وأنّ «قدحا» هو شرارة ناتجة عن ركض «الخيل» أو «الإبل»، وأنّ «نقعا» تشير إلى الغبار، وأنّ «كنود» تعني الإنسان الكفور. في رأيي، لقد تمّ ابتكار هذه المعاني حتى يتمّ فهم القرآن بطريقة حدّدها أولئك المفسّرون، وليس على أساس الاستعمال الواضح والمتعارف عليه لكلماته.

المشاكل النحوية

حالة النصب في كلمة «ضبحا»

تتكوّن الآية الأولى من سورة العاديات من حيث تركيبها النحوي من اسم فاعل ومصدر في حالة نصب. إذا تمعّنّا في حالة النصب هذه، لوجدنا أنّها لا تخضع لقواعد النحو العربي المعروفة، فليست الكلمة مفعولا به لفعل، ولا خبرا لكان وأخواتها، ولا اسما لإنّ وأخواتها، ولا تمييزاً أو حالاً أو مفعولاً مطلقاً أو أيّ نوع آخر من أنواع النصب. وغالباً ما تُفسَّر حالة النصب هذه على أنّ «ضبحا» منصوب على المصدر، كما رأينا في حالة «غرقا» في «والنازعات غرقا» (انظر الفصل الرابع) أو مصدر في موضع الحال[18]. وكما كتبت عن إعراب «غرقا»، فإنّ المصدر هو تصنيف صرفي وليس تصنيفاً نحويّاً، ولا يتلقّى الاسم حالة النصب أو أيّ حالة إعرابيّة أخرى بمجرّد أنّه مصدر.

17 الفراء، معاني القرآن، ج. 3، ص. 285؛ أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج. 2، ص. 307؛ تفسير الطبري، ج. 12، ص. 673

18 أبو عبد الله ابن أحمد المعروف بابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1941، ص. 155

مرجع الضمير في الآيتين الرابعة والخامسة (فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا)

من الواضح أنّ المفسّرين والنحويّين لم يعرفوا ما يشير إليه الضمير المفرد المذكّر في (به) في هاتين الآيتين، ولم يأتوا بتفسير منطقي ومقنع.

جاء في «معاني القرآن» للفرّاء ما يلي: «وقوله عزّ وجلّ: بِه نقعا، يريد بالوادي، ولم يذكره قبل ذلك، وهو جائز؛ لأنّ الغبار لا يُثار إلّا من موضع وإن لم يُذكر، وإذا عُرِف اسم الشيء كُني عنه وإن لم يَجْرِ له ذكر[19].

واقترح بعض المفسّرين أنّ الضمير يشير إلى حوافر الخيل[20]. ولكن مثل هذا التفسير يواجه مشكلة كون الضمير في (به) يعود على اسم مفرد مذكّر، بينما تتطلّب كلمة «حوافر» ضميرا مفرداً مؤنّثاً.

يتّفق القرطبي في تفسيره مع المفسّرين الذين فهموا أنّ الضمير يشير إلى مكان غير مذكور، ولكنّه يضيف أنّه من الممكن أنّه يشير أيضاً إلى «العدو» ويقول: «قوله تعالى: فأثرن به نقعا أي غبارا: يعني الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به ... والكناية في «به» ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة. وإذا علم المعنى جاز أن يُكنّى عما لم يجرِ له ذكر بالتصريح...وقيل فأثرن به أي بالعدو نقعا. وقد تقدم ذكر العدو... وقيل: إنه طريق الوادي، ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع»[21].

ويقول ابن كثير في تفسيره لآية «فأثرن به نقعا»: المكان الذي إذا حلت فيه أثارت به الغبار، إما في حجّ أو غزو»[22].

وجاء في تفسير الجلالين للسيوطي والمحلّى: «فأثرن هيّجن به (بمكان عدوهن أو بذلك الوقت) نقعا) غبارا بشدة حركتهن)[23].

من الواضح أنّ كلّ هذه التفسيرات لا تتعدّى كونها تّكهّنات وتخمينات، تعجز عن تفسير المشكلة النحويّة في كلمة «به» في الآيتين «فأثرن به نقعاً، فوسطن به جمعاً» بطريقة منطقيّة مقنعة.

وعلى الرغم من أنّ المفسّرين وأهل اللغة كتبوا آلاف الصفحات لشرح أو تفسير الإحدى عشرة آية في سورة العاديات، فإنّهم فشلوا بشكل عامّ في تقديم تفسير مُرْضٍ لما يعنيه النص. وأعتقد أنّه من المستحيل

---

19 الفرّاء، معاني القرآن، ج. 3: 285؛ الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه، ج. 4، ص354؛ الطبري، تفسير، ج. 12، ص. 670

20 تفسير مقاتل، ج. 3، ص. 510، تفسير الطبري، ج. 12، ص. 670

21 القرطبي، الجامع، ج. 20، ص ص. 158-159

22 اسماعيل بن عمر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد السلامة (8 أجزاء)، الرياض: دار طيبة، 1997، ج. 8، ص. 465

23 جلال الدين المحلّي وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، تحقيق أبو فارس الدحداح، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2000، ص. 818

تقديم تفسير منطقي متماسك ذي معنى واضح للسورة في شكلها الحالي؛ لأنّ نصّها الأصلي قد أسيئت قراءته وفهمه، ولا بدّ من استعادته لفهم السورة بشكل صحيح.

تفسير بديل

كما أشرت في الفصل الأوّل من الكِتاب، كان النصّ القرآني المكتوب في القرن الأوّل للهجرة يفتقد النقط والحركات والهمزة وكثير من الألفات. وكانت هناك مجموعات من الحروف، تُكتب بنفس الطريقة كالباء والتاء والثاء والنون والياء؛ والعين والغين؛ والفاء والقاف، وغيرها. وكما نعرف، فإنّه تمّ تمييز هذه الحروف بالنقاط في وقت لاحق.

سأحاول فيما يلي إعادة بناء ما أعتقد أنّه كان النصّ الأصلي لسورة العاديات بدءاً بالشكل غير المنقوط، كما كان مكتوباً في النسخ الأولى للقرآن قبل التنقيط وإضافة الحركات والهمزة والألفات في داخل الكلمة.

الآية الأولى: والعدبـ صحا

إذا استبدلنا حرف العين في العاديات بحرف الغيْن، وحرف الضاد في ضبحا بحرف الصاد، وأضفنا الألف في داخل الكلمات، لكانت النتيجة:

والغاديات صُبحا.

المعنى الأساسي والأكثر شيوعا للفعل غدا-يغدو، واسم الفاعل منه «الغاديات» هو: الخروج وأداء العمل في الصباح، ولا سيما في الصباح الباكر[24]. والمعنى الأساسي والأكثر شيوعاً للاسم «صبح» هو: أوّل النهار، أو النهار المبكّر[25]. من الناحية النحويّة، فإنّ كلمة «صبحا» في «والغاديات صبحا» هي بوضوح ومن دون أدنى شكّ ظرف زمان. ومن الناحية الدلاليّة، فإنّ الكلمتين تتناسبان مع بعضهما البعض تناسباً لا غبار عليه: «النساء اللاتي يخرجن صباحا». كما رأينا أعلاه، فإنّ هذا التناسب النحوي والدلالي التامّ ليس موجوداً في التفسير التقليدي للآية الأولى من سورة العاديات.

كتب الحسن بن عبد الله العسكري (ت. 382هـ/992م) في «كتاب أخبار المصحّفين» عن الراوي العربي المشهور وناقل الحديث، حمّاد الراوية، ما يلي:

أخبرنا الحسن، أنبأ محمد بن يحيى قال: سمعت مَن يحكي أن حمّاد الراوية قرأ يوماً «والعاديات صبحا»، وأن بشار الأعمى سعى به إلى عقبة بن سلم، أنّه يروي جل أشعار العرب ولا يحسن من القرآن غير أم الكتاب

24 ابن منظور، لسان العرب، ص. 3220-3221

25 نفس المصدر، ص ص. 2388-2391

فامتحنه عقبة بتكليفه القراءة في المصحف فصحف فيه عدة آيات منها ومن الشجر ومما يغرسون وقوله كان وعدها أباه وليكون لهم عدوا وحزبا وما يجحد بآياتنا إلّا كلّ جبّار كفور ...[26]

وقد عدّد العسكري ستّ عشرة آية من سور مختلفة كان حمّاد الراوية قد قام بتصحيفها، أذكر بعضاً منها في الجدول التالي:[27]

	الآيات الأصلية (الصيغة المعتمدة)	التصحيف (حسب العسكري)	
.1	والعاديات ضبحا	والعاديات صبحا	العاديات: 1
.2	ومن الشجر وممّا يعرشون	ومن الشجر وممّا يغرسون	النحل: 68
.3	إلّا عن موعدة وعدها أيّاه	كان وعدها أباه	التوبة 114
.4	ليكون لهم عدوا وحَزنا	ليكون عدوّا وحربا	القصص: 8
.5	وما يجحد بآياتنا إلّا كلّ ختّار كفور	وما يجحد بآياتنا إلّا كلّ جبّار كفور	لقمان: 32
.6	وهم أحسن أثاثا ورئيا	وهم أحسن أثاثا وزيّا	مريم: 74
.7	عذابي أصيب به من أشاء	عذابي أصيب به من أساء	الأعراف: 156
.8	صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة	صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة	البقرة: 138

إنّ نظرة فاحصة في هذه القراءات «المصحّفة» تُظهر أنّ بعضها أكثر منطقيّة من القراءات المعتمدة، وربّما تكون هي القراءات الأصليّة. بعبارة أخرى يمكن القول إنّه ربّما كانت قراءة حمّاد الراوية لكلمة «ضبحا» على أنّها «صُبحا» في سورة العاديات هي الأقرب إلى الشكل الأصلي.

وأخيراً وفي تفسيره لكلمة «ضبحا»، كتب مقاتل: «قوله والعاديات ضبحا: الخيل غدت إلى الغزو حتّى أضبحت، فَعَلَتْ أنفاسها بأفواهها، فكان لها ضباح كضباح الثعلب»[28]. إنّ استعمال مقاتل لكلمة «غدت» في هذا السياق مُلفت للنظر، وربّما له علاقة بالكلمة الأولى لأصل الآية الذي اقترحته هنا، وهو «والغاديات صُبحا».

الآية الرابعة: فأثرن به نقعا

إذا غيّرنا شكل الهمزة من همزة قطع (أ)، إلى همزة مدّ (آ) في كلمة «أثرن»، وحذفنا نقطة من نقطتي القاف في كلمة «نقعا»، لكانت النتيجة: فآثرن به نفعا[29].

26 الحسن بن عبد الله العسكري: كتاب أخبار المُصحّفين، تحقيق ابراهيم صالح، دمشق: دار البشائر، 1995، ص ص. 71-72

27 العسكري، ص ص. 72-73

28 تفسير مقاتل، ج. 3، ص. 510

29 يقول أحمد عمر وعبد العال مكرم إنّه كان هناك بعض الاختلافات في قراءة «فأثرن»، فقد قرأها أبو حيوة وابن أبي عبلة «فأثرن» أي بشدّة على الثاء. أحمد عمر وعبد العال مكرم، معجم القراءات القرآنيّة، 6 أجزاء، القاهرة، عالم الكتب، 1997، ج. 5، ص. 455

مرّة أخرى، من الناحية النحوية والدلالية، فإنّ «فآثرن به نفعا» هي جملة حسنة الصياغة: ففضّلن بـــ(فعل) ذلك (أداء/ تقديم) عمل صالح.

لقد ورد الفعل «آثر» خمس مرّات في القرآن في الآيات التالية: سورة يوسف: 91 (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين)؛ سورة طه: 72 (قالوا لَن نُؤثِرَكَ عَلَى ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ والَّذي فَطَرَنا فاقضِ ما أَنتَ قاضٍ إِنَّما تَقضي هَذِهِ الحَياةَ الدُنيا)؛ الحشر: 9 (والَّذينَ تَبَوَّءوا الدارَ والإيمانَ مِن قَبلِهِم يُحِبونَ مَن هاجَرَ إِلَيهِم وَلا يَجِدونَ في صُدورِهِم حاجَةً مِما أوتوا وَيُؤثِرونَ عَلى أَنفُسِهِم وَلَو كانَ بِهِم خَصاصَةٌ وَمَن يوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأولئك هُمُ الـمُفلِحونَ)؛ النازعات: 38 (وآثَرَ الحَياةَ الدُّنيا)؛ الأعلى: 16 (بَل تُؤثِرونَ الحَياةَ الدُّنيا).

أمّا الفعل «أثار»، فقد ورد مرّتين في القرآن في عبارة «تثير سحابا»: في سورة الروم: 48 (اللَّهُ الَّذي يُرسِلُ الرياحَ فَتُثيرُ سَحابًا فَيَبسُطُهُ في السَّماءِ كَيفَ يَشاءُ وَيَجعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدقَ يَخرُجُ مِن خِلالِهِ فاذا أَصابَ بِهِ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ إِذا هُم يَستَبشِرونَ) وسورة فاطر: 9 (واللَّهُ الَّذي أَرسَلَ الرياحَ فَتُثيرُ سَحابًا فَسُقناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فأحيينا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها كَذَلِكَ النشور).

أمّا الجذر ن-قَ-ع، فليس له وجود في القرآن سوى في هذه الآية من سورة العاديات، مقابل خمسين كلمة مشتقّة من الجذر ن-ف-ع[30].

كنود ← كبود

تشير المشكلات المرتبطة بكلمة «كنود» التي ذكرتها أعلاه إلى قراءة خاطئة محتملة للرسم الذي كُتبت به النُسخ الأولى للقرآن. إذا كان الأمر كذلك، فما هي القراءة الصحيحة»؟ من المؤشّرات على هذه القراءة الصحيحة السياق الذي وُجدت فيه الكلمة. كما أشرت سابقا، فإنّ هذا السياق يعزّز قراءة إيجابية لكلمة «كنود».

هذه القراءة ممكنة، إذا، أوّلاً، بدأنا بالصيغة غير المنقّطة للكلمة ونقّطناها بشكل مختلف، وثانياً، إذا وسّعنا البحث ليشمل اللغات السامية وثيقة الصلة بالعربيّة، والتي يمكن من خلال مقارنة مفرداتها التي تشترك في جذورها مع العربيّة إلقاء الضوء على ما يمكن أن يكون كلمة عربيّة قديمة اختفت أو تمّ نسيانها مع الزمن.

إذا وضعنا نقطة تحت الحرف الثاني من كلمة «كنود» بدلاً من فوقه، نتج عن ذلك كلمة «كبود». هذه الكلمة غير مُثبتة في العربية بهذا الشكل، ولكن توجد كلمة ذات صلة في موضع آخر في القرآن، في الآية الرابعة من سورة البلد: لقد خلقنا الإنسان في كبد، والتي اقترحت أن تُفهَم بمعنى: «لقد خلقنا الإنسان منتصبا (أو ليس مثل غيره من المخلوقات أو في أحسن تقويم)»، وليس بمعنى «لقد خلقنا الإنسان في معاناة». (انظر الفصل الثالث).

30 عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص ص. 807-808

وإذا نظرنا إلى معاني الجذر ك-ب-د[31] في واحدة من أخوات العربيّة، وهي اللغة العبريّة، لوجدنا المعاني التالية: ثقيل، وازِن، محترَم، مَجد، شرَف، كبِد[32].

إذا استبدلنا كلمة «كنود» بكلمة «كبود»، وبنينا معناها على معنى كلمة «كبد» في السورة الرابعة من سورة البلد، وواحد من المعاني الموجودة في العبريّة من مشتقّات الجذر «ك-ب-د»، وهو المجد والاحترام وحُسن الهيئة، واستبدلنا التفسيرات التقليدية لكلّ من كلمتيْ «خير» و«شديد»، بالمعاني الشائعة لهاتين الكلمتين في العربيّة، نتجت لدينا قراءة منطقيّة وذات معنى متماسك للآيات السادسة والسابعة والثامنة من سورة العاديات. ولكن قبل تقديم هذه القراءة، لا بدّ من التنويه أنّ كلمة «كبود» لها معنى اسم الفاعل في العربيّة؛ لأنّ وزن «فَعول» في القرآن يأتي بشكل عامّ بمعنى اسم الفاعل كما في «غفور» (الغافر)، «كفور» (الكافر، مَن يكفُر)، «ظَلوم» (مَن يظلِم)، وهكذا. لذلك، يمكن القول إنّ كلمة «كبود» تعني مُحترِم (الذي يحترِم) أو مُمَجِّد (الذي يمجِّد).

إنّ الإنسان لربّه لكبود (كبود= مُحترِم، مُمجِّد)

وإنّه على ذلك لشهيد

وإنّه لحبّ الخير لشديد

الآية الثالثة: فالمغيرات صبحا: هل أضيفت إلى نصّ موجود مسبقاً؟

هناك عدد من الدلائل التي تشير إلى أنّ هذه الآية قد أضيفت إلى مجموعة الآيات التي تأتي قبلها وبعدها، والتي كانت قبل هذه الإضافة تشكّل نصّاً متماسكاً ذا تسلسل منطقي.

من هذه الدلائل، أوّلاً، أنّ الآية لا تتطلّب قدراً كبيراً من التفسير خِلافاً لبقيّة الآيات، حيث إنّ النقطة الوحيدة التي تتطلّب توضيحاً هي معرفة ما إذا كانت كلمة «المغيرات» تشير إلى الخيل أو الإبل، وهي الإشارة التي مثّلت مشكلة في الآيتين الأولى والثانية. قد يتذكّر القارئ قول الطبري في تفسيره أنّ «زيد بن أسلم» اعتبر هذه الآية قسماً لا يحتاج إلى الشرح، حيث يقول: «وقد كان زيد بن أسلم يذكر تفسير هذه الأحرف ويأباها، ويقول، إنّما هو قسم أقسم الله به»، ثانياً: لا يرد الجذر غ-ي-ر الذي اشتُقّت منه كلمة «المغيرات» في القرآن بمعنى الإغارة أو الهجوم أبداً. هناك معنيان أساسيّان له، وهما «التغيير» (غيّر، يغيّر، مُغيّر) والنفي (غير)[33]، ثالثا: كلمة «المغيرات» هي الكلمة الوحيدة في السورة التي تشير إلى قتال أو معركة، فلا توجد أيّ كلمة أخرى يمكن ربطها بحدّ ذاتها بموضوع القتال والحرب، رابعا: عندما نتأمّل معنى الآيات الثلاث الأولى من السورة، كما

31 في الأكاديّة الجذر يظهر الجذر على صيغة ك-ب-ت.

32 Brown, Driver and Briggs, *Lexicon,* 457-458

33 Badawi and Abdel-Haleem, *Dictionary*, 682

تُفسّر وتُفهم تقليديّاً، نلاحظ أنّها تفتقر إلى تماسك وتسلسل منطقي لفكرة معيّنة؛ فالآية الأولى تصف الخيل (أو الإبل) وهي تلهث، وتصفها الآية الثانية تُحدث الشرر بحوافرها. أمّا الآية الثالثة، فتبيّن أنّها تُغير في الصباح. إذا كان هذا هو المعنى المقصود، فمِن المنطقي أن تكون الإغارة أوّلاً، ثم إحداث الشرر بالحوافر واللهاث أو اللهاث وإحداث الشرر بالحوافر، حيث من المنطق أن يأتي اللهاث والشرر بعد شروع الخيل في الإغارة وليس قبله. يبدو أنّه بعد أن اتّخذ القرار بأنّ الآية الأولى تشير إلى خيل تعدو، تمّ تطوير المشهد وأدخلت آية الإغارة، فهذه الإضافة تعزّز معنى جديداً لطمس معنى آخر قديم هو، على الأرجح، ترنيمة دينية عن النساء في سياق تعبّدي، كما اقترحت في تحليلي للآيات الخمس الأولى من سورة النازعات (انظر الفصل الرابع).

الآية الخامسة: فوسطن به جمعا

يدور التفسير التقليدي لهذه الآية، كما رأينا في تفسير الطبري، حول دخول الخيل المغيرة في وسط أو في جمع الكفّار أو كتيبة العدوّ، ولكن الفحص الدقيق لكلمة «وسطن» والكلمات المشتقّة من نفس الجذر المستعملة في القرآن، وتكرار ارتباط هذه الآية في التفاسير بـ«الجمع» و«المزدلفة»، يشيران إلى تفسير مختلف تماماً عمّا ورد في التفاسير المألوفة.

إلى جانب ظهوره في الآية الخامسة من سورة العاديات، فقد ورد الجذر و-س-ط أربع مرّات في القرآن، في الآيات التالية: سورة البقرة: 143 (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا)، البقرة: 238 (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)، سورة المائدة: 89 (فَكَفارَتُهُ إِطعامُ عَشَرَةِ مَساكينَ مِن أَوسَطِ ما تُطعِمونَ أَهليكُم)، سورة القلم: 28 (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون)[34].

في الآيات الأربع، وفي نصّ القرآن كلّه، لم ترد أيّ كلمة مبنيّة على الجذر و-س-ط على شكل فعل، باستثناء الآية الخامسة من سورة العاديات، وليس هناك لأيّ من الكلمات الأربع (وسطا، الوسطى، أوسط، أوسطهم) أيّه صلة بموضوع الحرب أو المعركة أو الدخول في العدو.

يقول الطبري في تعريف كلمة «وسطا» في سورة البقرة: 143:

فخصصناكم التوفيق لقبلة إبراهيم وملته، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطا. وقد بينا أن الأمة هي القرن من الناس والصنف منهم وغيرهم. وأما الوسط، فإنه في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه: أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، وهو وسط في قومه وواسط[35].

34 عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص. 841

35 تفسير الطبري، ج. 2، ص. 8

أمّا بالنسبة إلى كلمة «وُسطى» في «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» (البقرة: 238)، فيكتب الطبري ما يزيد على سبعة آلاف كلمة في تفسير الآية التي تقع فيها، ولا يعرف القارئ بعد قراءة ذلك الكم من الكلمات أيّاً من الصلوات الخمس هي الصلاة المقصودة في الآية. ورغم ذلك، فإنّه يبدو أنّ المعنى الأساسي للكلمة، وهو «المنتصف» أو «ما يقع في الوسط»[36].

أمّا كلمة «أوسط» التي وردت في سورة المائدة: 91 (فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم)، فيفسّرها الطبري بـ«أعدل»، «أمثل»، «أفضل»[37].

وأخيراً، يفسّر كلمة «أوسطهم» في سورة القلم: 28 (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبّحون) بـ«أعدلهم»[38].

يتبيّن ممّا سبق، أنّ معاني الكلمات الأربع المشتقّة من الجذر و-س-ط تدور حول الوسط (كما في منتصف الأشياء) الأفضل، الأعدل، الأمثل، المختار، الرفيع النسب. بناء على هذه المعاني، فإنّه من المنطقي أن يكون للفعل «وسطن» في الآية الخامسة من سورة العاديات معنى على غرار هذه المعاني، مثل «فضّلن» أو «خَصصنَ» أو «اخترنَ».

المزدلفة والحج

رأينا فيما كتبه الطبري في تفسيره للآية الأولى من سورة العاديات، كيف أنّ فهم ابن عبّاس لما تشير إليه آية «والعاديات ضبحا» تَغيّر بعد أن نبّهه علي بن أبي طالب إلى أنّها تشير إلى الإبل من عرفة إلى مزدلفة إلى منى وليس إلى الخيل.

يكرّر الطبري الإشارة للإبل في تفسيره للآية الثانية (فالموريات قدحا). وفي تفسيره للآية الثالثة (فالمغيرات صبحا) يقول: «عني بذلك الإبل حين تدفع بركبانها من «جَمْع» يوم النحر إلى مِنى»، ويورد حديثاً نقله ابن حميد عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم عن عبد الله يقول فيه: «فالـمُغيرَاتِ صُبْحا حين يفيضون من جَمْع»[39].

أمّا في الآية الرابعة (فأثرن به نقعا)، فيورد قولاً لابن عبّاس أنّ عليّاً بن أبي طالب قد قال له: «إنما العاديات ضَبْحا من عرفةَ إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى مِنى». وفي تفسيره للآية الخامسة (فوسطن به جمعا) يقول الطبري: «قال آخرون: بل عُني بذلك فوسطن به مزدلفة»[40].

---

36 نفس المصدر، 569-576.

37 تفسير الطبري، ج. 5، ص. 17-22

38 تفسير الطبري، ج. 12، ص. 193

39 نفس المصدر، ص. 669

40 نفس المصدر، ص. 671

تدلّ الإشارة المتكرّرة إلى «الإبل» و«عرفة» و«مزدلفة» و«منى» و«جمع» بأنّ الجمع المذكور في «فوسطن به جمعا» هو تجمّع ديني أو تجمّع للحجيج، أو المتعبّدين.

بناء على ما سبق، يمكن فهم الآية الخامسة من سورة العاديات كما يلي: خصصن أو فضّلن به (النور، الشعلة) جمع المتعبّدين أو جمع الحجيج.

قدحا: نار الحرب، مكر الرجال، أم نور العبادة؟

ممّا يجدر ذكره أنّ كلمة «قدحا»، مَثلها مَثَل «ضبحا» و«نقعا» و«كنود» وردت مرّة واحدة في القرآن، في الآية الثانية من سورة العاديات. وكما رأينا، فقد تمّ تفسير «الموريات قدحا» على أنّها تشير إلى الخيل تُورِي النارَ بحوافرها، أو إلى مكر الرجال، أو إلى الإبل حين تسير تَنْسِفَ الحصى بمناسمها فيضربَ الحصَى بعضُه بعضا، فتخرج منه النار[41].

إذا ألقينا نظرة على مشتقّات الجذر ق-د-ح في العبريّة التوراتية والسريانية، لوجدنا المعاني التالية:

في العبريّة التوراتيّة، يرتبط الجذر ق-د-ح بالإضاءة والاشتعال، الحرارة، الحرارة الناتجة عن الحُمّى، الياقوت (الحجر الثمين)، الحَفر[42].

وفي السريانيّة، تحتوي مشتقّات الجذر ق-د-ح على المعاني التالية: نزع الشعر، حلاقة الشعر كعلامة حِداد، اشتعال النار، الاحتراق، الإضاءة، الحَفر، عمل الشقّ (لتطعيم الشجر)، قدح الشرر، الصراخ والعويل، نموّ البذور، نقاط سوداء تحت الجلد، استقبال الأشياء[43].

تتناسب معاني إشعال النار والإضاءة والنور، والتي تتكرّر في اللغتين، بشكل جيّد مع القراءة البديلة التي سأقترحها أدناه لسورة العاديات.

إنّ أم أنّ؟

هناك سبب وجيه لقراءة كلمة «إنّ» في الآية الأخيرة من السورة على شكل «أَنّ». انظر كيف تنسجم «أنّ» كأداة تربط الآيتين التاسعة والعاشرة بالآية الحادية عشرة، بينما تعمل «إنّ» على فصل الآية الحادية عشرة عن سابقتيها:

---

41 نفس المصدر، ص ص. 667-668

42 Matityahu Clark, *Etymological Dictionary of Biblical Hebrew: Based on the Commentaries of Rabbi Samson Raphael Hirsch* (Jerusalem, New York: Feldheim Pub., 1999), 224. See also Brown, Driver and Briggs, *Lexicon*, 869

43 Payne-Smith, *Compendious Syriac Dictionary*, 489

أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور، وحصّل ما في الصدور، أنّ ربّهم بهم لخبير.

أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور، وحصّل ما في الصدور، إنّ ربّهم بهم لخبير.

تُنسب هذه القراءة البديلة (بأنّ) إلى ابن مسعود، وأبي السمّال، والحجّاج[44] وسأختارها عند إعادة بناء السورة التي سأقترحها أدناه.

خبير: عالم بكلّ ما أسرّوا أم رفيق درب؟

من الـمُلفت للنظر أنّ كلمة «خبير» وردت خمساً وأربعين مرّة في القرآن، وهي تُفهم عادة بمعنى «العارف» أو «العالم بالأشياء»، أو «العالم بكلّ شيء»، كما نرى في كتب التفسير. ومن ناحية أخرى، فإنّ كلمة «لطيف» وردت سبع مرّات، خمس منها مع كلمة خبير: «لطيف خبير» (الأنعام: 103، الحجّ: 63، لُقمان: 16، الأحزاب: 34، الملك: 14). من الممكن جدّاً، ومع الأخذ بعين الاعتبار معنى كلمة «لطيف» المرتبطة بها في الآيات سابقة الذكر، أنّ معنى كلمة «خبير» في الآية الأخيرة من سورة العاديات قريب من معنى «لطيف» ويشبه معناها في اللغتين العبريّة (חבר-حبير) والسريانيّة (ܚܒܪ-حبرا). ففي العبريّة تعني «رفيق درب»[45]، وفي السريانيّة تعني «صديق حميم»، «رفيق درب»، «زميل»[46].

إعادة بناء سورة العاديات

بناء على كلّ ما سبق، أقترح إعادة بناء سورة العاديات كما يلي:

1	والغاديات صُبحا
2	فالموريات قدحا (الـمُضيئات، الـمُشعلات نوراً)
3	فآثرن به نفعا
4	فوسطن به جمعا (خصصن به جمع المتعبّدين أو جمع الحجيج)
5	إنّ الإنسان لربّه لكبود (إنّ الإنسان يحترم أو يمجّد ربّه)
6	وإنّه على ذلك لشهيد
7	وإنّه لحبّ الخير لشديد
8	أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور
9	وحُصّل ما في الصدور
10	أنّ ربّهم بهم يومئذ لخبير. (أنّ ربّهم سيكون رفيقاً لهم في ذلك الوقت)

44 عمر ومكرم، معجم القراءات، ج. 5، ص. 457

45 Brown, Driver and Briggs, *Lexicon*, 288

46 Payne-Smith, *Syriac Dictionary*, 125

خاتمة

لقد اقترحت إعادة قراءة سورة العاديات، حيث يُعاد تنقيط أربعة حروف (والعاديات ← والغاديات، ضبحا ← صُبحا، نقعا ← نفعا، كنود ← كبود) وتغيير شكل الهمزة في كلمتين (فأثرن ← فآثرن، إنّ ← أنّ).

ومن ناحية أخرى، قدّمت عدداً من الأدلّة على أنّ الآية الثالثة ليست جزءاً من النصّ الأصلي للسورة، بل أقحمت إلى نصّ متكامل متناسق. وكما يظهر من الصيغة المقترحة للسورة، والتي أعتقد أنّها الصيغة الأصلية، فإنّها تشكّل سرداً أكثر انسجاماً وتماسكاً ووضوحاً من حيث الدلالة والتركيب من النسخة التقليدية المعتَمدة.

وفي حين أنّ النصف الأوّل من السورة في نسختها التقليدية، يصوّر الخيل وهي تندفع إلى المعركة، أو الإبل وهي تحمل الحجيج، والنصف الثاني يبيّن جحود الإنسان وجشعه، فإنّ النصف الأوّل في النسخة الـمُعاد بناؤها، يصف النساء وهنّ يقمن بأعمال التقوى، والنصف الثاني يُظهر الإنسان كمخلوق يمجّد ربّه ويحبّ فعل الخير.

واعتمدت في إعادة بناء السورة على أدلّة من السورة نفسها ومن أجزاء أخرى في القرآن، وكذلك من خلال المقارنة مع الكلمات التي تشترك فيها العربيّة مع أخواتها من اللغات الساميّة وخاصّة العبرية والسريانية. فبالإضافة إلى القرب اللغوي، فإنّ هناك قُرباً في الموروث الديني، حيث إنّ العبريّة هي لغة التوراة والسريانيّة هي لغة الإنجيل، وليس هناك من يُنكر علاقة القرآن بهذين الكتابين المقدّسين وتراثهما.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com